صُوَرُ الزَّمَنِ فِيْ شِعرِ المُعتَمِدِ بنِ عَبَّادِ

إعداد : الزهراء علي حمود ، إشراف : د. هلا عبد الحميد العلي

ملخـــص البحـــث

إن العودة إلى الأدب الأندلسي الذي أنتجه الأدباء في ذلك العصر يكشف جانباً مهماً في هذا الأدب؛ وهو الحضور العميق والمكثف للزمن في الشـــعر، ويعد الزمن أحد العناصـــر المهمة في بنية التجربة الشـــعرية في تلك المرحلة شـــكلاً ومضموناً.

وللوقوف على هذا الحضـور الغني وصـوره ودلالاته؛ اختار الباحث شـاعراً يعد من ألمع شـعراء عصـر ملوك الطوائف، عصر التحولات والتقلبات على الأصعدة المختلفة، ألا وهو المعتمد بن عباد؛ الشاعر الملك.

فقد جاءت تجربته الشـعرية ناطقة بالتحولات الزمنية المتصـلة بحياته، وسـوف يرصـد البحث هذه التحولات الزمنية وعلاقتها المضمون الشعري والبناء الفني في شعر المعتمد بن عباد في مرحلتين :

1- مرحلة الملك والسيادة.
2- مرحلة الأسر والنفي.

كلمات مفتاحية : دلالة – الزمن – الشعر الأندلسي – المعتمد بن عباد.

The Significance of Time in the Poetry of

Al-Mu'tamid ibn Abbad

Summary

Returning to the Andalusian literature produced by writers of that era reveals an important aspect of this literature: the profound and intense presence of time in poetry.

This is one of the important elements in the structure of the poetic experience of that period, both in form and content.

To examine this artistic presence, its images, and its implications, I have chosen a poet considered one of the most brilliant poets of the era of the Taifa kings, an era of transformations and upheavals on various levels: Al-Mu'tamid ibn Abbad, the poet-king.

His poetic experience speaks volumes about the temporal transformations connected to his life. This research will examine these temporal transformations and their relationship to the poetic content and artistic structure in the poetry of Al-Mu'tamid ibn Abbad in two phases:

1- The phase of kingship and sovereignty.
2- The phase of captivity and exile.

Keywords : Significance - Time - Andalusian poetry - Al-Mu'tamid ibn Abbad

مقدمـــة :

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسوله الأمين، وعلى آله الطيبين الطاهرين؛ وصحبهِ الأخيار البررة المنتجبين والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

أمَّا بعد :

لقد كان الزمن قضية مرتبطة بحياة الإنسان في جميع مراحلها، ولا غَروَ أنَّه قضية كبرى تتجسد فيها المراحل العمرية من الطفولة إلى الشباب وصولاً إلى المشيب، قال تعالى : **{ هو الذي خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم لتبلغوا أشدكم ثم لتكونوا شيوخاً ومنكم من يتوفى من قبل ولتبلغوا أجلاً مسمى لعلكم تعقلون }**[1] .

وكان للزمن حضور كبير في الشعر العربي منذ القديم فهو ذو سمة مميزة ومركزية تتجلى في مواقف متنوعة بين القوة والضعف؛ إذ يراه الشعر الجاهلي قوة قاهرة مرتبطة بالموت والفناء، ويوظفه في رثاء الأطلال والتحسُّر على الشباب، في حين يتحول في الشعر الحديث إلى بعد فلسفي يرتبط بالهوية والواقع والتاريخ، متجسداً في الماضي بـ (الحنين)، والحاضر بـ (الصراع)، والمستقبل بـ (الغموض)، مع اختلاف رؤى الشعراء له؛ فهو : كالدهر أو اللحظة، أو الزمن الفلسفي.

وقد كان قوة قاهرة تسبب المعاناة والفناء بين ماضٍ يحمل حسرة الذكريات وحاضر يعكس القلق والشك ومستقبل غامض يثير الخوف؛ مع علاقة معقدة بين الزمن والشعر تتراوح بين الشكوى من تقلباته كما عند المتنبي[2]، والتأمل الفلسفي في طبيعته كما عند المعري.

وإننا إذا ما تتبعنا الزمن في العصر الأندلسي؛ وخصوصاً عصر ملوك الطوائف، نجده حافلاً بالأحداث، فقد حدث فيها ضعف سياسي رافقه سقوط اجتماعي؛ ومحنٌ تمثلت في الفقر والمرض والحسد والوشاية والسجن، وعلى الرغم من الانكفاء والتقوقع الاجتماعي والإقصاء والتفكك السياسي؛ فإننا نجد جذوة الشاعر وقادة ومجالات المعرفة والثقافة طامحة تضيء طريقاً عانى منها الأندلسيون في تلك الفترة العصيبة.

وقد مثل عصر ملوك الطوائف ظاهرة تاريخية منفردة بحاجة إلى دراسة تحليلية تعكس مفهوم الزمن وتداعياته في نفوس الشعراء؛ وكان منهم الملك المعتمد بن عباد.

تمهيـــد :

المعتمد بن عباد؛ مولده، حياته :

[1] غافر ، 67

[2] المتنبي : هو أبو الطيب أحمد بن الحسين الجعفي الكوفي، ويعد من أعظم شعراء العرب في العصر العباسي، ولد في الكوفة عام 915م، وعرف بعبقريته اللغوية وفصاحته، ولقِّب بمالئ الدنيا وشاغل الناس، وتوفي مقتولاً في واسط عام 965م وهو في طريق عودته من شيراز إلى العراق، انظر : الأعلام، الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ج2 /115.

هو أبو القاسم المعتمـــــد على الله؛ محمد بن عبَّاد (وكذلك لُقّب بالظافر والمُؤيَّد)، ولد عام 431هـــ ، في باجة[3] جنوب الأندلس لأبيه حاكم إشبيلية[4] أبي عمرو المُعتضد[5]، وهو ذو نسب عربي ينتهي إلى ملك الحيرة النعمان بن المنذر بن ماء السماء اللخمي، إذ قدم جد المعتمد مُحمَّدُ بن إسماعيل إلى إشبيلية قاضياً وفقيهاً؛ وما لبث أنْ أمسك زمام مقاليد الحكم فيها، فعظم نفوذه وذاع صيته إلى أن وافته المنية، فخلفه على العرش ابنه المعتضد ثم حفيده المعتمد.

برزَ المُعتمد في عهد أبيه قائداً ومحارباً شديد المراس؛ إذ ولَّاه والده منذ يفاعه إمارة أونبة[6]، وأثبت جسارة ومهارة وحُسن إدارة؛ فما لبث أن أمَّره والده على جيش عرمرم ليغزو به مدينة شلب[7]، وهناك التقى أبا بكر بن عمار الذي كان له أثر كبير في إدارة مملكته مستقبلاً، وعقب وفاة أبي عمرو المعتضد عام 461هـ وصعود ولده المعتمد؛ قام الأخير باستدعاء صديقه أبي بكر بن عمار من منفاه في أقصى شمال الأندلس وخيَّره أيَّ عمل يريد، فاستقر على ولاية شلب مسقط رأسه، ولكن المعتمد لم يطق الصبر على فراق ابن عمار؛ فاستدعاه إلى بلاطه في إشبيلية وعيَّنه كبيراً لوزرائه، فغدا جليسه الدائم.

معركـة الزَّلَّاقـة :

بدأت المعركة التي عرفت بالزَّلاقة[8] بين الجيوش الأندلسية وجيش ألفونسو يوم الثاني عشر من رجب عام 479هـ ، وكانت الغلبة في البداية لجيش ألفونسو؛ حتى جاءت المؤازرة من المرابطين وانقلبت الموازين رأساً على عقب، فحمي الوطيس ودارت المعركة طاحنةً تحصد الأرواح.

والواقع أن معركة الزلاقة تعدُّ من المعارك الفاصلة في التاريخ على غرار اليرموك والقادسية، فالظروف التي أمست عليها دول الطوائف بما فيها إشبيلية كلها تؤذن بالنهاية، " فالدولة إذا طرقها الهرم بالترف ولم تعد قادرة على الاعتماد على أبنائها يحمونها...لا يجدُ صاحبها أمامه غير الفراغ الذي أحدثه باستسلامه لسيل الترف المدمر، هنا يتمزق شمله، ويلقي بنفسه بين أحضان الأجانب [9].

وعاد المعتمد إلى إشبيلية منصوراً؛ فأقبل الناس عليه للتهنئة والتفَّ حوله الشعراء وأنشدوه ما نظموه في تلك المناسبة، وكان منهم عبد الجليل بن وهبون [10].

---

[3] باجة : مدينة عامرة في جنوب الأندلس (وتقع الآن في دولة البرتغال).

[4] إشبيلية : مدينة عامرة تقع الآن جنوب غرب إسبانيا.

[5] المعتضد بالله : هو عباد بن محمد بن إسماعيل بن عباد؛ والمعتضد لقبه، وهو ابن ذي الوزارتين القاضي أبي القاسم، توفي سنة 461 هـ ، انظر: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ابن بسام، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة بيروت، م1 / 23.

[6] أونبة : تقع الآن جنوب غرب إسبانيا.

[7] شلب : تقع الآن جنوب دولة البرتغال.

[8] الزلاقة : تقع الآن شمال غرب إشبيلية على الحدود الإسبانية - البرتغالية، ويروى أن يوسف بن تاشفين قال لرجاله بعد أن هرب ألفونسو ورجاله إثر المعركة : " الكلبُ إذا أُرهق لا بد أن يعض، وقد سلم الله المسلمين من معرته، ولم يقتل منهم إلا القليل، فإن هجمنا على هؤلاء أبلوا بلاء عظيماً ولكن اتركوهم ولاحظوا حالهم" انظر : الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، ابن الخطيب، عني بنشره بشير الفورتي، تونس، د.ط، د.ت، / 199.

[9] الفكر الأخلاقي عند ابن خلدون، عبد الله شريط، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981م، /350.

[10] وهو شاعر قال أبياتاً في وصف حسن بلاء المعتمد في معركة الزلاقة :

فثارَ إلى الطّعانِ حليفَ صِدقٍ ... تثورُ بهِ الحَفيظةُ والذِّمَامُ

فَهِيلَ به كثيبُ الكُفرِ هَيلاً ... وكلُّ رقيقةٍ مِنهَا رُكَامُ

وأصبَح فوقَ ظهرِ الأرضِ أرضاً ... كأنَّ وِهَادهَا منهُمْ أَكَامُ

على أن الهزيمة التي لحقت بألفونسو لم تبعث اليأس في قلبه؛ بل عاد يحشد جيوشاً جديدة ليحارب المدن الإسلامية في الأندلس، فتوالت غارات الفرنجة على الحصون العربية؛ ونجحوا في احتلال بلنسية وأغاروا على مرسية وضواحي لورقة[11] وتحصنوا في لبيط[12] وكان الأخير حصناً منيعاً ذا مركز إستراتيجي على رأس جبل عال يشرف على الطريق بين مرسية ولورقة، ولم يكن المسلمون في وضع يمكنهم من الدفاع عن ديارهم والصمود في وجه تلك الغارات، فتطلعوا ثانية إلى سيد مراكش الذي سبق له أن أنجدهم، ومع أنه وعدهم بالجواز إليهم في السنة المقبلة إلا أن المعتمد ركب البحر إليه بنفسه وعرض مطلبه قائلاً : "جئتك احتساباً وجهاداً وامتعاضاً للدين، وقد أجرى الله الخير على يديك، وحظك مما جئت به الأوفر"[13]، فقبل ابن تاشفين عرض المعتمد وتعهد بالخروج؛ ولكنه لم يدم على تعهده طويلاً... إذ أن يوسف بن تاشفين عندما عاد إلى مراكش[14] بدأ يتلمَّظ بعد رؤيته جمال طبيعة الأندلس؛ وهالَهُ ما رأى من سحر بقاعها. ودارت فيما بعد معركة بين المعتمد وجنوده من جهة والمرابطين من جهة أخرى وأُلقي القبض على المعتمد بعد أن أُثخن بالجراح، واقتيد أسيراً مع الباقين من عياله ومَقَادم دولته إلى يوسف بن تاشفين، فنفاه وأقرانَهُ أمراء الأندلس إلى مدينة طنجة[15]؛ فلبث فيها ردحاً من الزمن، ثم نُفي إلى أغمات[16] حيث قاسى أهوال السجن والفقر والمرض.

الزمن (لغة واصطلاحاً) :

1- الزمن في اللغة :

جاء في تهذيب اللغة للأزهري أن الدهر بمعنى " الأبد المحدود "[17] ، وقد رجَّح مُحققا الكتاب أن يكون التعريف محرفاً من " الأمد الممدود " أو " الأبد الممدود " على ما جاء في لسان العرب لابن منظور[18].

ويعزز هذا القول ما ذكره صاحب الكليات وصاحب المخصص جانباً من الصواب فقد قال الكفوي : " (الدهر هو في الأصل اسم لمدة العالم من مبدأ وجوده إلى انقضائه ويستعار للعادة الباقية ومدة الحياة) "[19].

وقال ابن سيده : " الدهر مدة بقاء الدنيا إلى انقضائها "[20].

2- الزمن في الاصطلاح الأدبي :

ويتضمن أولاً : المعنى الديني :

---

[11] لورقة : مدينة أندلسية تقع قرب مرسية جنوب شرق إسبانيا.
[12] لبيط : حصنٌ يقع على رأس جبل بالقرب من لورقة.
[13] الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، ابن الخطيب، د.ط، عُني بنشره بشير الفورتي، تونس، د.ت، ج2، /201.
[14] مراكش : مدينة مغربية تقع إلى الجنوب الغربي من العاصمة الرباط.
[15] طنجة : مدينة مغربية تلتقي عندها مياه البحر المتوسط بالمحيط الأطلسي.
[16] أغمات : تقع الآن وسط المملكة المغربية بالقرب من مدينة مراكش.
[17] تهذيب اللغة، الأزهري، تحقيق محمد عبد المنعم خفاجي ومحمد فرج العقدة، مراجعة محمد البجاوي، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، مصر، 1964 – 1967م، 6 / 191.
[18] لسان العرب، ابن منظور، دار صادر، بيروت، د .ت، 4 / 292.
[19] الكليات " معجم في المصطلحات والفروق اللغوية "، أبو البقاء أيوب الكفوي، تحقيق عدنان درويش ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1992م، / 444.
[20] المخصص، ابن سيده، دار الفكر، بيروت، 1978م، 2 / 629.

لقد نظر معظم عرب الجاهلية إلى متغيرات حياتهم على أنها ردود أفعال لقوى جزئية من تفاصيل الحياة ذاتها ولم يجدوا آنئذ أحق من الدهر ينسبون إليه قوى التغيير تلك واعتقدوه محركاً لأحداث حياتهم.

وقد جاء في رسالة الغفران عن عرب الجاهلية : " بأنه لم يُدَّعَ أن أحداً منهم كان يقرب للأفلاك القرابين ولا يزعم أنها تعقل وإنما ذلك شيء تتوارثه الأمم من زمان بعد زمان "[21].

وبقي الحال كذلك حتى هبط الوحي على رسول الله {صلَّى الله عليه وسلَّم}، فعادت الأمور إلى نصابها ونال الدهرَ ما نال غيره من تبدل، ولم يعد المدبر الفاعل لأن هناك مدبراً وفاعلاً وخالقاً للعالم والدهر معاً، إذ أنَّه {صلَّى الله عليه وسلَّم} لم يُقبَض إلى الرفيق الأعلى إلا وقد ترك أمَّته على المحجة البيضاء؛ لا يزيغ عنها إلا هالك، فأرشد أمَّته إلى التوحيد وتسليم القدرة لله {عزَّ وجلَّ}.

وقد جاء في الحديث القدسي عن رسول الله {صلَّى الله عليه وسلَّم} :

[يُؤْذِينِيْ ابنُ آدَمَ؛ يَسُبُّ الدَّهرَ وَأنَا الدَّهرُ، بِيَدِيْ الأمرُ أُقَلِّبُ اللَّيلَ وَالنَّهَارَ][22].

وقد تم ربط الزمن بالخالق سبحانه، وكان يُرى آية كونية، وميداناً للاختبار والابتلاء، وهو مرتبط بالوقت المعلوم (يوم القيامة)، قال تعالى : **{ قال فإنك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم }**.[23]

ويمثل الزمن الإلهي بعداً مطلقاً يتجاوز قياس البشر؛ ويحمل في طياته معنى وقيمة للوجود الإنساني، ومن هذه المعاني :

- الزمن آية من آيات الله عز وجل، يُنظر للزمن فيها دليلاً على عظمة الله تعالى وقدرته وحكمته، قال تعالى : **{ هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نوراً وقدَّره منازل لتعلموا عدد السنينَ والحساب ما خلق الله ذلك إلا بالحقِّ يفصِّل الآيات لقومٍ يعلمون }**.[24]
- الزمن ميدان للابتلاء، ويظهر الزمن مرحلة للعبادة والاختبار وتحديد مصائر الأفراد، وتتجسد فيه الغاية الأُخرَوِية (الدنيا دار فناء والآخرة دار بقاء) قال تعالى : **{ يا قوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع وإن الآخرة هي دار القرار }**.[25]
- الزمن الإلهي والزمن البشري، فيختلف الزمن عند الله عما هو عند البشر، قال تعالى : **{ يدبّر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه في يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدُّون }**.[26]

ثانيا : المعنى الشعري :

إن للزمن أهمية في النقد الأدبي تتأتَّى من كون النص حركة دلالية تنتقل ضمن نظام إخفاء وإظهار، يهمش متناً؛ أو يؤصّل هامشاً، بحيث يكون مرور الوقت على النص ليس مجرد معالجات ، بل للوصول إلى المقاربة أو الموازنة التي تضع نصاً قبالة نص؛ فلم يكن تقابلاً وإنما صراعاً دائراً وموازنة حكم وأحياناً آلية تنقيح وحذف تتولاها نظرية الأدب بكلّيتها من جزئها

[21] رسالة الغفران، المعري، تحقيق بنت الشاطئ، دار المعارف، القاهرة، مصر، 1950م، / 420.
[22] صحيح البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، تحقيق مصطفى ديب البغا، مطبعة الهندي، بيروت، 1980 – 1981م، 4 / 1825.
[23] الحجر ، 37 - 38
[24] يونس ، 5
[25] غافر ، 39
[26] السجدة ، 5

الأولي المتمثل بمصادر الشعرية على غموضها واختلافها؛ إلى ولادة النص الأدبي الذي لا يقل غموضاً وتعدداً في المصادر التي غالباً ما يكون التنقيح جزأها المكون بعدما كان جزأها المُضمر، فيتم من خلاله التعبير عن التجربة الإنسانية أولاً والشعرية ثانياً[27] من خلال :

- تجسيد العواطف :

فتتجلى التجارب الشخصية للشاعر (الطفولة – الحب – الألم) ضمن إطار زمني يضفي عليها معنى أعمق

- التحرر من القيود :

يكسر الشعر التقليدي الزمن الماضي ليخلق زمناً مفتوحاً يتيح للشاعر التعبير عن فردانيته وتجديده المستمر وتحقيق صلة مفتوحة مع الزمن، وهناك علاقة وطيدة بين الشعر والزمن تتجلّى بـ :

- الخلود الفني :

يسعى الشاعر عبر توظيف الزمن إلى تحقيق الخلود لنفسه ولنصّه، فالفن وسيلته الوحيدة للانتصار على فناء الزمن المادي.

والزمن في الشعر يتجاوز كونه مجرد تتابع للأحداث؛ ليصبح قوة غامضة ومؤثرة، فتارة هو سلاح ذو حدين يسرق الشباب ويُسبب الحسرة؛ وتارة أخرى هو قيد يمنع الاستمتاع بالحياة، وأحياناً يشكل بوابة الخلاص والخلود عبر الحلم والذاكرة والأسطورة ؛ متجلّياً في صور الفناء والزوال وتغير الأحوال مع إدراك الشاعر لقدرته على التحويل وربطها بالوجود الإنساني ومصيره.

وثمة تمييز بين أنواع عدَّة للزمن عند الشعراء ؛ منها **الزمان الدَّهري**، وهو عند صلاح عبد الحافظ : "كل ما يتناول العلاقة بين الشاعر والدّهر أو القدر والموت....أي كل ما فرض على الشاعر من قبل الكون بالإضافة إلى عنصر المكان"[28].

والمعنى الشعري للدهر هو النظر إليه بوصفه قوة زمنية ضابطة من أهم سماتها الفاعلية والتغيير، وهذه العلاقة بين الإنسان والدهر ما فتئت تفرض نفسها على مجمل الإنتاج الأدبي العربي والشعري بشكل خاص.

أسباب اختيار البحث وأهميته :

• أهمية الموضوع وعدم تناوله لدى الشاعر المعتمد.

• إمكانية عدّ قضية الزمن قضية تنبض بالحيوية والحركة.

• دراسة الإبداع الشعري المتصل بحياة المعتمد نموذجاً لاتساق الشعر مع الأحداث التاريخية والاجتماعية وتعبيره عنها.

وتأتي أهمية البحث من غزارة المادة الشعرية التي تتجلى فيها قضية التحولات الزمنية في عصر الشاعر وأثر الزمن في شعره.

[27] بتصرف : خلاصة اليومية والشذور، عباس محمود العقاد، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع 1995م، 68 / 69.
[28] الزمان والمكان وأثرهما في حياة الشاعر الجاهلي وشعره، صلاح عبد الحافظ، دار المعارف، القاهرة، مصر، 1983م، (و).

ويسعى هذا البحث إلى تقديم دراسة توضح التفاعل بين الزمن والمضمون الشعري من حيث الأسلوب؛ الطول والقصر؛ اللغة؛ الإيقاع.

وقد اختار البحث شاعراً من عصر ملوك الطوائف؛ وهو العصر الذي شهد تقلبات تاريخية واجتماعية وسياسية عبَّر عنها المعتمد في شعره، ويشكل الزمن حضوراً مكثفاً وعميقاً يواكب هذه التحولات التي رافقت حياة المعتمد بن عباد في مرحلتين : مرحلة الملك والسيادة؛ ومرحلة الأسر والنفي، وهو جانب غني وثرّ؛ يغري الباحث ويدفعه إلى الكشف عن دلالة الزمن وصوره في مرحلة اتسمت بالتغيير والتقلب وعدم الاستقرار، وقد عبر عنها المعتمد في شعره الذي جاء نتيجة عملية خلق وإبداع متناسبة بين شعره وبين التحولات الزمنية التي رافقت حياته، فجاءت قصائده دفقات وجدانية محملة بالتراكمات الزمنية، كما هي محملة بالدفقات الشعورية والعاطفية.

هدف البحث :

• تتبع أثر الزمن في الشعر الأندلسي "شعر المعتمد نموذجاً ".

• يقدم هذا البحث تحليلاً لكيفية تفاعل الزمن مع النص الشعري من حيث الأسلوب والإطالة والقصر فيه.

• تتبع تحولات الزمن في شعر المعتمد بن عباد وعلاقته بالمضمون الشعري.

• رصد تجليات الزمن بأنواعه الثلاثة : " الماضي والحاضر والمستقبل " في شعر المعتمد بن عباد .

الدراسات السابقة :

لم يُدرَس الزمن في شعر المعتمد قبل الآن؛ ولكن هناك مجموعة من الدراسات المتصلة بالزمن في الشعر الأندلسي والشعر المعاصر منها :

– الزمن في شعر ابن خفاجة الدكتور حمدي أحمد حسانين، مجلة كلية الزقازيق، مصر، 2001م.

– الدهر في الشعر الأندلسي، دراسة في حركة المعنى، الدكتور لؤي خليل، جامعة دمشق ، 1992م.

– الإحساس بالزمن في الشعر العربي من الأصول حتى نهاية القرن الثاني للهجرة، علي الفيضاوي، تونس، منشورات كلية الآداب بمنوبه، الطبعة الأولى.

– المعتمد بن عباد شاعراً، آمنة بن منصور، منشورات جامعة أبي بكر بلقايد في تلمسان، الجزائر.

– مشاهد الفرح والترح في شعر المعتمد بن عباد، د. عبد الغني محمد محمد البسيوني، منشورات جامعة المنصورة، مصر.

منهج البحث :

يعتمد البحث المنهج الوصفي التحليلي الذي يتتبع الظاهرة المدروسة بالبحث عن تفسيرها ووصفها وتحليلها، وذلك بربط العوامل المؤثرة بتسلل الزمن إلى إبداع الشاعر وما عرض له من تقلبات وظروف في محاولة للوصول إلى البعد التاريخي

للزمن وأثره في نتاج الشاعر بالإضافة إلى المنهج النفسي الذي يدرس تداعيات الزمن في نفس الشاعر وتأثيرها سلبياً وإيجابياً في إبداعه.

أسئلة البحث :

- كيف تم توظيف الزمن في شعر المعتمد بن عباد ؟
- ما دلالة الزمن في شعر المعتمد في مرحلة المُلك ؟
- ما دلالة الزمن في شعر المعتمد بن عباد في مرحلة الأسر والنفي ؟
- ما العلاقة بين التحولات الزمنية والمضمون الشعري عند المعتمد بن عباد ؟
- ما أثر التحولات الزمنية في البناء الفني عند الشاعر المعتمد ؟

- **مصطلحات البحث وتعريفاته الإجرائية :**

أولا : أنواع الزمن في الشعر العربي :

1 –الزمن القاهر :

ظهر قوة غامضة لا تقاوم تسبب الشقاء والموت، وكان الشاعر يواجهها بالصبر أو الشكوى، كما في قول[29] المتنبي :

ما الشَّوقُ مقتنعاً منّي بذا الكَمَدِ حتَّى أكُونَ بلا قلبٍ ولا كَبِدِ

ولا الدّيارُ الَّتِي كانَ الحبيبُ بِهَا تشكُو إِليّ ولا أشكُو إِلَى أحدِ

ما دارَ في خَلَدِ الأيَّامِ لي فَـرَحٌ أبَا عُبادةَ حتَّى دُرتَ فِي خَلَدِي

2 –الزمن النفسي (الذاتي):

يعكس مشـــاكل الشـــاعر الداخلية؛ كالحســـرة على الشـــباب والألم والحنين للماضـــي مع تأثيره الذاتي، كما في قول[30] أبي العتاهية[31] :

إنَّ الشَّبـــاب لنَافِقٌ عندَ الـــوَرَى مَا للمَشِيـــبِ مُخَادِنٌ وحَبِيـــبُ

3 – الزمن التاريخي :

يظهر باستحضار أمجاد الماضي وقصص الأيام والشخصيات التاريخية، ونجد ذلك في شعر الفرزدق[32] إذ يقول[33] :

[29] ديوان المتنبي، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، 1983م، 64 / 65.
[30] ديوان أبي العتاهية، دار بيروت للنشر والطباعة، بيروت 1986م، /41.
[31] أبو العتاهية : هو إسماعيل بن القاسم بن سويد العنزي، أبو إسحاق، وهناك رأيان في نسبه؛ الأول أنه : مولى لقبيلة عنزَة، والثاني أنه عنزِيٌّ صليبية، وهذا قول ابنه محمد، انظر : الأعلام، الزركلي، ج2، /34.
[32] الفرزدق : هو همام بن غالب التميمي، وهو أحد شعراء العصر الأموي، واشتهر بشعر الفخر والهجاء، وكان له فن عُرف بالنقائض مع جرير والأخطل، والفرزدق لقبه لضخامة وجهه، انظر : الأعلام، الزركلي، ج2 ، /119.
[33] ديوان الفرزدق، دار صادر بيروت 1984م، ص 163.

وَمَا مِنْ غُلامٍ مِنْ مَعَدّ عَلِمتُــهُ وَلا يَمَنِ الأملَاكِ مِنْ أرضِ صَيهَدِ[34]

لَهُ مِثْلُ جدّ ابنِ المُهلَّـبِ[35] والَّذي لهُ عدد الحَصباءِ مِنْ ذِي التَّمعـدُدِ[36]

4 الزمن الفلسفي :

يتناول طبيعة الوجود والعدم التي يصبح فيها الزمن سجَّاناً والموت هو المصير المحتوم؛ ونلمس ذلك في شعر المعري[37].

وللزمن أهمية في التجربة الوجودية، فهو أساسي ويمنح النص عمقاً وجودياً وفلسفياً عبر تجسيد صراع الذات مع الزوال، ويشكل البناء الفني من خلال تداخل الأزمنة (الماضي والحاضر والمستقبل) لخلق أبعاد جمالية وتغيير وتجديد، ويتحول من مجرد قياس مادي إلى زمن إبداعي يعكس الرؤيا الفنية للشاعر، ويصبح مادة للتعبير عن التجارب العاطفية والاجتماعية، ووسيلة للتعبير عن الهروب من الواقع أو مواجهته من خلال الذاكرة والأحلام، مما يجعل القصيدة كياناً متغيراً يتجاوز اللحظة العابرة نحو الخلود الفني.

ثانياً : أنواع الزمن في شعر المعتمد بن عباد :

- الماضي : تمثلت نظرة الشعراء إلى الزمن الماضي بارتباط هذا الزمن باليوم الذهبي الذي انقضى، وتتسم هذه النظرة بالحنين العميق إلى الأندلس عندما كانت في أوج ازدهارها، ويُستخدم الماضي لاستحضار صور المدن الجميلة والبساتين الغنّاء والعيش الرغيد الذي فقدته الأندلس، فتتسم الأشعار بالأسى والحزن عند تذكر ما مضى، خاصة في قصائد رثاء المدن والممالك.
- الحاضر : تمثلت النظرة في كونه زمن الحزن والأسى والشعور بالضياع، وقد تميز بالحرب والمآسي والقلق والخوف من الصراع المستمر الذي يهدّد الاستقرار، ويصوّر الشعراء الواقع المؤلم، ويتغنون بمجد الماضي الذي ضاع؛ وتتسم الأبيات الشعرية في تلك الفترة بالحكمة الصادقة التي تنبع من التجربة المريرة، في محاولة منهم لفهم الأحداث وتحليلها.
- المستقبل : وكانوا ينظرون إليه غالباً بوجه يكتنفه التشاؤم؛ إذ تُرى الصورة المستقبلية قاتمة ومحفوفة بالمخاطر، ويعبر الشعراء عن العجز في مواجهة المستقبل والشعور بالضياع وعدم القدرة على إحداث أي تغيير بعد أن وصلت الأمور إلى مرحلة متقدمة من التراجع والسقوط للمدن الأندلسية.

وقد جاء شعر المعتمد صورة لمراحل حياته وتقلبات الزمن فيها؛ فتظهر شخصية الشاعر الملك في الماضي من خلال شعره، ويختلف ذلك بين المرحلة التي كان فيها ملكاً عزيزاً في قومه والمرحلة التي جار فيها الزمن عليه وضاعت تلك الأمجاد والسطوة، ويعدّ شعره توثيقاً لمراحل الزمن التي رافقت حياته.

1- الزمن الماضي :

[34] صيهد : موضع في اليمن.

[35] المهلَّب : هو أبو سعيد المهلب بن أبي صفرة (ظالم) بن سُراق الأزدي العتكي، قائد عربي ووالٍ من ولاة الأمويين، اشتهر بقتاله للأزارقة وانتصاره المؤزَّر عليهم، وعُيّنَ والياً على خراسان عام 78 هـ وفيها توفي عام 82 هـ ، انظر : الأعلام، الزركلي، ج2، /278.

[36] التَّمعدد : الانتساب إلى معدّ بن عدنان.

[37] المعري : هو أبو العلاء أحمد بن عبد الله التنوخي، ولد عام 973م وتوفي عام 1057م، شاعر وفيلسوف وكاتب عربي من معرة النعمان، اشتهر بعمق فلسفته وحكمته التي انعكست على دواوينه الشعرية ومنها : سقط الزند واللزوميات، انظر : الأعلام، الزركلي، ج2، /157.

تظهر روح الملك المعتز بنفسه وسيادة أسرته في الماضي؛ فهو ملك وابن ملك، فيتحتم أن نراه عزيز النفس يمدح نفسه وأباه؛ ويعطي كل ذي حق حقه، إذ قال :[38]

لله درُّ أبي السنانْ من فارسٍ شهم الجنانْ

تخشاه آسادُ الرّجا لِ كما يجودُ به الزمانْ

ونراه في موضع آخر يقول :[39]

كنتُ حِلف الندى وربَّ السَّماحِ وحبيبَ النُّفـوس والأرواحِ

إذ يميني للبذلِ يومَ العطايَـا ولِقَبضِ الأرواحِ يومَ الكفاحِ

وشمالِي لقبضِ كلّ عنـانٍ يُقحم الخيلَ في مجال الرّماحِ

وأنا اليومَ رهنُ أسـرٍ وفقـرٍ مستباحُ الحمى مَهيضُ الجَنَاح

فالماضي هو نسخة لاسترجاع الذكريات الجميلة؛ وهو يمثل الزمن السعيد والحياة الهانئة التي عاشها الشاعر ولذلك يقوم باستدعاء الماضي وتذكر مجده أيام العز حين كان يبذل العطايا للناس ويعقد مقارنةً بين حاله في الماضي وحاله في الحاضر فهو اليوم مكبل بالأصفاد في حين كان في الماضي حراً طليقاً ملكاً عزيزاً.

وقال حين هوجمت إشبيلية؛ فخرج مدافعاً عن نفسه وأهله، وكان قد أشار عليه وزراؤه بالخضوع ولكنه أبى لأن ذلك ينافي طبعه واعتزازه بشرفه وكرامته ويحتّم عليه عدم القبول :[40]

لما تماسكت الدمـوعْ وتنبَّه القلب الصديـعْ

قالوا : الخضوع سياسةٌ فليبدُ منك لهم خضوعْ

إن يسلبِ القوم العـدا ملكي وتسلمني الجموعْ

لم أستلب شرف الطبا عِ، أيسلبُ الشرف الرفيعْ

شيم الألى أنا منهـمُ والأصـلُ تتبعه الفروعْ

لقد رفض الشاعر الاستسلام والخضوع للأعداء لأن ذلك ليس من شيم الملوك، فالعز والإباء متجذر في نفسه؛ بدليل قوله في البيت الأخير، فهو فرعٌ لأصلٍ كريمٍ.

وغالباً ما يأتي الزمن الماضي في شعر المعتمد بن عباد في إطار استرجاع الذكريات الجميلة، عندما كان يعيش حياة الملوك في قصوره التي تفتقده الآن وتبكيه.

[38] ديوان المعتمد بن عباد، المعتمد بن عباد، جمع وتحقيق حامد عبد المجيد وأحمد أحمد بدوي، راجعه طه حسين باشا، المطبعة الأميرية القاهرة، 1951م، / 62.
[39] المصدر نفسه، / 94.
[40] المصدر نفسه، / 88.

يقول الشاعر بعد أسره مستذكراً قصوره في الأندلس :[41]

بكى المُبارَكُ في إثر ابن عبادِ بكى على إثر غزلانٍ وآسادِ

بكتْ ثُرَيَّاهُ لا غُمَّتْ كواكبها بمثل نوء الثريا الرَّائح الغادِي

ماء السماء على أبنائـه درٌ يا لجة البحر دومي ذات إزبادِ

فالشـاعر هنا جعل الطبيعة ومكوناتها تشـاركه في تذكر مجده، فالقصـر وكل من فيه يذرف الدمع على المعتمد الذي خسـر مُلكه وأضـحى سجيناً في أغمات.

2- **الزمن الحاضر :**

لقد عانى المعتمد وطأة الأسـر؛ وتجرع كأس ويلات الفراق، ولكن الأمر يختلف عنده عن غيره لأن مأسـاته مضـاعفة، فهو ملك وابن ملك ووقع في الأسر، فكيف يحتمل هذا الملك العربي البعد عن بلاده وحاضرة مملكته ؟!، وكيف يُكبَّل بالأصـفاد ويُساق سَوق العبيد ؟!. وقد جاءه الخذلان ممن مدّ لهم اليد طالباً العون، وتبرز آلامه وحسرته واضحة عندما رأى بناته وقد لبسن الرثَّ من الثياب؛ وقد كُنَّ في الأعياد يلبسن الفاخر منها، إذ يقول :[42]

ترى بناتِكَ في الأطمار جائعـةً يغزلن للناس ما يملكنَ قطميرَا

برزن نحوكَ للتَّسليم خاشِعَـةً أبصارهُنَّ حسيراتٍ مكاسيرَا

يطأنَ في الطّينِ والأقدامُ حافيـةٌ كأنهـا لم تطأ مسكاً وكافورَا

وهنا يتجلّى التحول الزمني وأثره في شعر المعتمد، فمن ملكٍ عزيز، تعيش بناته حياة الرفاهية إلى إنسان مكسور يرى الجوع والفقر قد أخذا مأخذهما من بناته؛ حتى صـرنَ يدسـنَ في التراب بأقدام حافية بعد عز مقيم، فالماضـي في نظر الشـاعر هو زمن السـرور والقوة والمجد، أما الحاضـر فهو يمثل الانكسـار والحسـرة والألم ، ويتجلى أثر الزمن الحاضـر بشـكل واضـح ومقنع في قوله :[43]

دعا لي بالبقاءِ وكيف يهـوى أسيـرٌ أن يطول به البقاءُ

أليسَ الموتُ أروح من حيـاةٍ يطولُ على الشَّقي بها الشَّقاءُ

سيُسلي النَّفسَ عمَّن فاتَ علمِـي بـأنَّ الكلَّ يُدركـهُ الفناءُ

وهذه الأبيات قالها في طبيب عالج إحدى كرائمه وهو في الأسر وكان الطبيب قد دعا له بالبقاء؛ فالمعتمد هنا يتعجب كيف لأسـير مكبَّل بالقيود أن يتمنى طول العمر، لا؛ بل إن الشـاعر يتمنى الموت على الحياة، وتولدت عنده القناعة بأن كل من على الأرض سوف يموت، والمُلك لن يبقى في يد أحد.

[41] ديوان المعتمد بن عباد، المعتمد بن عباد، / 95.
[42] المصدر نفسه، 140 / 141.
[43] المصدر نفسه، / 90.

ونرى المعتمد في موضــع آخر بصــف زمان مجده في أبيات أنفذها إلى شــاعره الداني بعد وفادته عليه، وأرفقها بعشــرين مثقالاً، فيقول :[44]

زمانَ تنافستْ في الحظّ منهُ ملوكٌ قد تجورُ على الدُّهورِ

زمانَ تراجعتْ عن جانبيهِ جيادُ الخيلِ بالموتِ المُبيرِ

نحوسٌ كنَّ في عقبى سعود كـذاك تدورُ أقدارُ القديرِ

فالشــاعر كان ذا ملك كبير وكان مقصــد غيره من الملوك والشــعراء، لكن الزمن جار عليه وجعل أيامه أحزاناً بعد أن كانت مسرَّات، إنّ هذا التحول في حياة الشاعر جعله يرى الزمن من منظور آخر، فهو طويل وثقيل، وأيامه لا تحمل له إلا الحزن والانكسار، بعد أن عاش حياة الملك الشجاع لذا يقول في موضع آخر :[45]

كذا يهلك السَّيف في جفنـهِ إلى هزّ كفَّي طويلِ الحنينِ

كذا يعطشُ الرُّمحُ لم أعتقلهُ ولم تروهِ من نجيعٍ يمينِي

كأنَّ الفوارس فيه ليــوثٌ تُراعي فرائِسَها في عرينِي

فالمعتمد لم ينسَ شوقه للحروب والكفاح طيلة فترة أسره؛ فنجده يصف في هذه الأبيات ثورة ابنه عبد الجبار أجمل وصف، فسيف المعتمد ورمحه قد اشتاقا للنزال والقتال في ساحات الوغى، ولا ينسى أن يصور الأبطال وكأنهم أسود تتبع قائدها الشجاع، وفي ذلك صورة تحمل حنين الشاعر إلى الزمن الماضي الذي يعني له كل ما هو جميل.

لقد شكّل الزمن الماضي الصورة الجميلة المشرقة في حياة الشاعر فهو في شعره السرور والبهجة والقوة والملك...في حين الحاضر هو الألم والحسرة.

3- **الزمن المستقبل :**

إن القراءة المتأنية لشعر المعتمد بن عباد بعد التحول الكبير الذي ألمّ بحياته والصراعات الكبيرة التي انتهت به إلى الأسر والبعد عن إشبيلية تجعلنا ندرك أن المستقبل في نظر الشاعر غامض ومجهول وهو غريب منفي، بعد أن عاش حياة القوة والملك والعز.

وتتجلّى فيه مشاعر القلق والخوف من المصير في المستقبل ، فالأيام تمر على الشاعر بطيئة ثقيلة، لا تحمل له أي جديد، وهو لا يعرف ماذا ينتظره في المســتقبل، ويحنُّ إلى الماضـــي الجميل الذي كان فيه الرجل المقاتل صـــاحب البأس في المعارك، سيّداً في ملكه، وهو اليوم غريب أسير ينتظر المصير المجهول إذ يقول :[46]

غريبٌ بأرضِ المغربين أسيـرُ سيبكـــي عليه منبرٌ وسريرُ

[44] ديوان المعتمد بن عباد، المعتمد بن عباد، / 103.
[45] المصدر نفسه، / 116.
[46] المصدر نفسه، / 98 / 99.

وتندبه البيضُ الصوارمُ و القنـا وينهــلُّ دمعٌ بينهنَّ غزيرُ

سيبكيه في زاهيه والزّاهر النّدى وطُلّابـُه والعرف ثم نكيرُ

مضى زمنٌ والملكُ مستأنِسٌ بـه وأصبح عنه اليوم وهو نفورُ

فالشـاعر في هذه الأبيات يأسـى على قصـوره وملكه الزائل، ويتوقع البكاء والنحيب عليه من جميع من في مملكته بمن فيهم السيوف والرماح التي كان يقاتل بها في ساحات الوغى.

ونجد المعتمد مفعماً بالراحة الأبدية التي تأتي من الله عزَّ وجلَّ وراضياً بها، فالأمل موجود لا يفارق الشاعر فيقول :[47]

سأسألُ ربّي أن يديم بي الشَّكوَى فقد قرَّبتْ من مضجعِي الرَّشأ الأحوَى

فيا علَّتي دومِي فأنتِ حبيبــةٌ ويـا ربٌّ سمعَاً من نِدائيَ والشَّكوَى

فالمعتمدُ يسأل الله سبحانه وتعالى أن يديم به النوازل والمصائب لأن فيها تمحيصاً للذنوب.

وقوله في موضع آخر :[48]

قلْ لمنْ يطمعُ في نائلهِ قد أزالَ اليأسَ ذاكَ الطَّمَعَا

راحَ لا يملكُ إلا دعوةً يجبـرُ اللهُ العُفاةَ الضُّيَّعَا

هنا يظهر يأس الشاعر العميق فلا يرغب سوى بدعوةٍ من المحبّين المخلصين لعلَّه يلاقي ربَّه وقد تخلَّص من الذنوب.

ونراه يقول في موضع آخر :[49]

إذا نارُ حربكَ ضرَّمتهَـا حسبـتَ الأسنَّة فيها شرارَا

ستلقى فعالك يوم الحسـابِ تنثَّر بالمســك منك انتثارَا

وللشُّهداءِ ثنــاءٌ عليـكَ بحسـنِ مُقامك ذاك النَّهارَا

وأنَّهمُ بـكَ يستبشِــرو نَ ألا تُخـافَ وألا تُضـارَا

فالمعتمد يتوقع مصير يوسف بن تاشفين بعد الموت – ولم يكن قد وقع بعدُ في قبضته – بأن أفعاله الكريمة كما بدت معه سوف تلقى جزيل الثواب وحسن المآب وسيفوح عبق المسك منها.

إن حياة الأســـر وثقل الأيام التي تمرّ على الشـــاعر جعلته يتفكّر ويدرك أن الحياة إلى زوال مهما طالت لذلك قال في موضع آخر :[50]

[47] ديوان المعتمد بن عباد، المعتمد بن عباد، / 2.
[48] المصدر نفسه، / 108.
[49] المصدر نفسه، / 98.
[50] المصدر نفسه، / 25.

علل فؤادك قد أبــلَّ عليـلُ واغنـــمْ حياتكَ فالبقاءُ قليلُ

لو أن عُمركَ ألفُ عامٍ كامــلٍ ما كان حقاً أن يُقالَ : طويــلُ

أكذا يقودُ بكَ الأسَى نحوَ الرَّدى والعودُ عودُ والشَّمُولُ شَمُـولُ

بالعقلِ تزدحمُ الهمومُ على الحَشَا فالعقل عندي أن تزول عقـولُ

فالمعتمد في هذه الأبيات يطلب من نفسه الصبر والسلوان على القادم من الأيام، وكأننا به يستشرف حاله فيما بعد، فيجعل العقل مكان تجمع الهموم لا بل يجعل العقل كله في ذهابه.

ثالثا : موقف الشاعر من الزمن :

1- في مرحلة الملك (المجد والسيادة) :

لقد كان لاتساع رقعة الدولة في عهد المعتمد بن عباد أثر كبير في جعله الملك الشجاع الهزبر الصنديد؛ علاوة على تأثير الحروب التي خاضها دفاعاً عن ذمار الأندلس؛ خصوصاً في عهد ملوك الطوائف، لما شهده ذلك العصر من كثرة الحروب والتقلبات؛ فوضع هذا كله المعتمد في سدة الملك بعد وفاة والده.

لقد كان الشاعر المعتمد في هذه المرحلة صاحب حنكة ودراية مما جعله يلقى الحظوة لدى الرعية إضافة إلى كونه شاعراً، ولهذا نجده قد استخدم الزمن الماضي بوصفه وسيلة لتسليط الضوء على القيم والفضائل التي تميز بها بنو ماء السماء، أو ليعبر عن مشاعر الفخر والانتماء لتلك العائلة، أو ربما يستخدمه في وصف مشاعره نحو المحبوب؛ إذ يقول :[51]

جوهرُ قد عذَّبني منكِ تمادِي الغضبِ

فزفرَتِي صَعَـدٍ وعبرتِي في صَببِ

مَسكنُكِ القلبُ فَلا ترضي لهُ بالوصبِ

فالمعتمد هنا يصور الانفعالات الطارئة على نفسه، عندما وصف المحبوبة (جوهر)، فهو على غرار أقرانه يعبر عن الحال المتردية التي آل إليها؛ فدموعه تحرق خديه من كثرة البكاء.

ونراه في موضع آخر من شعره يصور نفسه بين مواكب من الجند؛ وذلك من باب الفخر بنفسه، فيقول:[52]

وترى الكواكبَ كالمواكبِ حولهُ رفعــت ثرياها عليه لواءَ

وحكيته في الأرض بين مواكبٍ وكواعبٍ جمعت سناً وسنـاءَ

[51] ديوان المعتمد بن عباد، المعتمد بن عباد، / 3.
[52] المصدر نفسه، / 28.

ففي هذه الأبيات صـورة للحياة التي كان يعيشـها المعتمد في مرحلة الملك والسـيادة، فقد صـور نفسـه في مقارنة بينه وبين البدر في السـماء من ذات القصـيدة، فكما البدر بين النجوم المتلألئة؛ كذلك هو بين جنده وأهل مملكته، ونجده أيضـاً يفخر بنفسه عندما استولى على قرطبة، وهو ما ملأ نفسه زهواً وأفعم قلبه بالأمل في الأندلس، إذ يقول :[53]

منْ للملوكِ بشأوِ الأصيدِ البطلِ؟! هيهـاتَ جـاءَتكمُ مهديَّـةُ الدُّوَلِ

خطبتُ قرطبة الحسناء إذ منعت من جاء يخطبها بالبيضِ والأسـلِ

فراقبــوا عن قريبٍ لا أبـا لكمُ هجــوم ليثٍ بدرع البأس مشتملِ

فقد شبه مدينة قرطبة بالفتاة الحسناء التي كثر خُطَّابها لكنها تمنَّعت عنهم إلى أن جاء المعتمد وأبلى بلاء حسناً جعلها تقبل به لأنه ذو قوة وبأس شديد بعكس غيره.

وقد غلب غرض الغزل على تلك المرحلة من حياته، وهو غزل حقيقي تحدث فيه عن عواطفه في حال الرضـا أو الغضـب، ويعبر فيه عن الجمال، فقال :[54]

الصُّبحُ قد مزَّقَ الدُّجَـى فمــزَّقَ الهمَّ بكفَّي مَهَـا

خذ باسمِهَا مِنْ ريقِهَا قهوةً في لونِ خدَّيها تجلَّى الأسَى

لقد غلب الغزل على شعره في مرحلة المجد والسيادة، إلى جانب الاعتداد بذاته إذ يقول :[55]

القلبُ قد لجَّ فما يُقصِــرُ والوجد قد جلَّ فما يسترُ

والدمع جارٍ قطرهُ وابــلٌ والجسمُ بالٍ ثوبهُ أصفـرُ

هذا ومن أعشَقُه واصِــلٌ كيـفَ بهِ لو أنَّه يهجـرُ

لكنْ عدتنِي نائباتُ النَّـوى في دوحهِ والشَّادنُ الأحورُ

وقد خُبّرتْ عني أني امرؤ فيه شحـوبٌ وضنىً يظهرُ

فأبدتِ الإشفاقَ من حالتِي ومثلَ ما تُبديـهِ ما تُضمرُ

فالمعتمد هنا يصــور حاله التي آل إليها من فعل المحبوب؛ فلم يعد يطيق صــبراً على الفراق، فإذا كانت هذه حاله بوجود محبوبه فكيف يكون في حال غيابه؟!.

وقال في رســالة كتبها إلى وزيره ابن عمار عندما ولاه على مدينة شــلب، ويذكر عهده بها عندما كان والياً عليها في عهد والده المعتضد في إشارة إلى المكانة الرفيعة التي يتمتع بها :[56]

[53] المصدر نفسه، / 65.
[54] ديوان المعتمد بن عباد، المعتمد بن عباد، / 1
[55] المصدر نفسه، / 16.
[56] المصدر نفسه، / 11.

ألا حيِّ أوطاني بشلــبٍ أبا بكـرِ وسلهنَّ هل عهد الوصالِ كما أدرِي

وسلّم على قصر الشراجيب عن فتىً له أبداً شـوقٌ إلى ذلك القصــرِ

منازل آســادٍ وبيـضٍ نواعــمٍ فناهيك من غيلٍ[57] وناهيك من خدرِ

هذه الأبيات فيها تذكر للماضي المجيد؛ وفخر بأبيه وجده، فصورهم أسوداً في أجماتهم، وأصحاب كرم وجود كبير.

2- **في مرحلة الأسر والنفي (الضعف) :**

لقد كان شعره في مرحلة الأسر سلواه؛ يشكو له بثه ويندب إليه حظه، ويحدثه بآلامه ويبكي به مصيره ومصير ملكه، فنراه مستسلماً لجور الدهر وظلم الأيام، ويوصي نفسه بالصبر، فيقول :[58]

اقنع بحظّكَ من دُنياكَ ما كَانَــا وعزّ نفسكَ إنْ فارقتَ أوطانَا

في الله من كل مفقودٍ مضَى عِوَضٌ فأشعرَ القلبَ سلواناً وإيمانَـا

أما سمعتَ بسلطانٍ شبيهــكَ قد بزَّته سود خطوب الدهر سلطانَا

وطّنْ على الكره وارقب إثره فرَجَاً واستغنـمِ الله تغنمْ منه غفرانَا

فالمعتمد هنا يدعو نفسه إلى تحمل الكرب ويوطِّنها على مواجهة المكاره؛ عسى الله أن يأتي بالفتح أو أمر ما من عنده.

وكان للأسر وما عُومل به في السجن ومقارنة ماضيه المجيد مع حاضره الأليم أثرٌ في إذكاء شجونه وإدماء عيونه، فها هو ذا يصف قدوم العيد عليه فبدا العيد حزيناً، ومما زاد في وطأة دخول بناته عليه يلبسن ثياباً بالية، فيقول :[59]

فيما مضَى كنتَ بالأعيادِ مسروراً فساءكَ العيدُ في أغماتَ مأسورَا

ترى بناتكَ في الأطمارِ جائعـةً يغزلنَ للناسِ ما يملكنَ قِطميرَا

يطأنَ في الطّين والأقدامُ حافيـةٌ كأنَّها لم تطـأ مِسْكاً وكافُورَا

قد كانَ دهركَ إنْ تأمُرهُ ممتثِلاً فردَّكَ الدَّهرُ مَنهيَّاً ومأمُـورَا

فالشــاعر هنا أســقط الحزن على العيد وزاد في ألمه هيئة بناته وهن في ثياب بالية، وبأيديهن المغازل، خصــوصــاً وأنهن أصـبحن يغزلن لمن كانوا لهن بالأمس خُدَّاماً، مما أثار في خاطره أطياف السـعادة الماضـية؛ فالحاضـر في شـعر المعتمد يتجلى في الضـعف والانكسـار والحسـرة فيمر الوقت عليه ثقيلاً، وهو يشـعر باليأس من الوضـع الذي انتهى به إلى الأسـر ومما ضاعف أساه؛ القيد الذي قُيّد به في السجن فملأ قلبه بالحسرة، فيقول :[60]

[57] غيل : الأجمة، وهي منزل السبع وجمعه غيول.
[58] ديوان المعتمد بن عباد، المعتمد بن عباد، / 114.
[59] ديوان المعتمد بن عباد، المعتمد بن عباد، / 100 / 101.
[60] المصدر نفسه، / 112.

قيديْ أما تعلمُني مُسلِمَاً؟! أبيتَ أن تُشفِق أو ترحمَــا

دمِي شرابٌ لكَ واللحمُ قد أكلتَه، لا تهشّمِ الأعظُمَــا

ارحم طُفيلاً طائشاً لبّــهُ لم يخشَ أن يأتيكَ مُسترحِمَا

وارحمْ أُخيَّاتٍ لهُ مثلــهُ جرّعتهنَّ السُّمَّ والعلقمَــا

ففي هذه الأبيات يتحدث المعتمد إلى قيده الثقيل، ويطلب منه الرحمة والشـــفقة، ولكن هيهات أنى له ذلك بوجود ذلك القيد الذي لا يرحم، لا بل يزيد من شــدته على قدمي المعتمد، على أننا لا نحس بروح الثورة في شــعر المعتمد وهو أســير إلا عندما بلغه نبأ ثورة ابنه عبد الجبار، فيذكر المعتمد السيف والرمح، إذ يقول :[61]

ألا شرفٌ يرحمُ المشرفيَّ ممـا به من شمات الوتينْ

ألا كرمٌ ينعشُ السَّمهريَّ ويشفيــه من كل داء دفينْ

ألا حنةٌ لابن محنيَّــةٍ شديدِ الحنينِ ضعيفِ الأنينِْ

فالسـيف قد طال رقاده في جفنه، والرمح قد ظمئ إلى شـرب الدماء، والجواد قد حيل بينه وبين ارتقاب غرة في العدو، وهو في كل ذلك يصور حنينه إلى الأيام الماضية، وهكذا؛ فإننا نجد معركة الشاعر المعتمد بن عباد كانت مع الزمن، فأخرج لنا شعراً رقيقاً ممزوجاً بالجزالة والعذوبة النَّابعة من صميم نفسه العزيزة، فقلّما نجد شاعراً سار سيرة المعتمد ونهج نهجه، فسيرته ملحمة زاخرة بالمتناقضات؛ الفرح والترح؛ بالقوة والضعف، وكان هذا عامل إثراء لتجربته الشعرية الفذة فظهرت دلالة الزمن فيها لتظهر خفايا نفسه الكريمة وتخرجها لنا في أبيات مليئة بالصدق.

علاقة الزمن بالأسلوب :

إن الأسلوب والأسلوبية مترابطان فيما بينهما؛ فعند دراسة الأسلوب لدى أي شاعر لا يمكننا أن نغفل عن سبر أغواره بمعزل عنها أو عن اللغة، والأســـلوبية تدرس النص الأدبي لكونه نتاجاً لغوياً من خلال فهم إمكانياته وطاقاته وأبعاده، وأن هذا النتاج عبارة عن : (تركيب لغوي يمثل حلقة اتصـــال ثلاثية بين المتكلم والشـــيء الذي يرمز إليه بكلامه والمتلقي لذلك التركيب)[62]، فالأسلوبية تسعى للكشف عن قوانين الإبداع في بنية الخطاب الأدبي بوصفه نصاً متعدد المعاني، ومن هنا كان هذا العلم متعدد المستويات؛ متنوع الأهداف والاتجاهات، فهي تنطلق من النص لتصب في النص.

وقد تميز شــعر المعتمد في نكبته بفيض من العاطفة والألم؛ تسـيل فيه قريحة الملك الشـاعر شــعراً عذب الأسـلوب رقيق الحواشـي صـادق التعبير؛ رسم فيه صـورة نفسـه الحزينة التي لاقت من العذاب والذل بعد العز صـنوفاً فجرت ينابيع شـعره، وقد توفر لـه من الخيال والصـــور وعمق النظر في تقلب الدهر وأحوال الأيام وكثرة إثارة العاطفة ما لم يتوفر لغيره من الشـعراء، وذلك لأن النكبة التي حلت به كانت أعمق جرحاً وأشـد أثراً في حياته كونه ملكاً في سـابق الأيام، واسـتحق لقب الملك الشاعر بجدارة.

[61] المصدر نفسه، / 116.

[62] البلاغة والأسلوبية، محمد عبد المطلب، ط1، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة دراسات أدبية، 1984م، / 147.

وعند دراسة أسلوب المعتمد لا بد لنا من النظر إلى استخدامه للصور الفنية التي كان لها أثر فعال في بناء الشعر كونها كانت تسعفه في تحرير الحمولة الشعرية المخبوءة في وجدانه، وخلق أجواء نفسية تؤثر في وجدان المتلقي؛ فالصورة تبقى وساطة التعبير في الشعر مهما تغيرت مصطلحاته، لأنها : (الأداة الوحيدة التي ينقل بها الشاعر تجربته ولا يمكن أن يستعيرها من سواه)[63]، ومن ذلك قوله :[64]

تبدَّلتُ منْ عزّ ظلّ البنودْ بِـذُلّ الحديدِ وثقلِ القيودْ

وكانَ حديدِيْ سنانَاً ذَلِيقاً وعَضباً رَقِيقاً صقيلَ الحدِيدْ

فقَد صارَ ذاكَ وذا أدهَمَاً يعضُّ بساقيَّ عضّ الأسُودْ

ونلاحظ هنا أن القيود تتجسد في صورة الأسود المتوحشة التي تعض ساقيّ الشاعر وتنهش لحمه؛ وكأنه يحمّل الزمن مسؤولية ما حل به من تبدل حاله من العز والسلطان إلى الذل والسجن في أغمات.

وعمد الشاعر إلى استخدام التشخيص بكثرة لا سيما تشخيص المجردات كالدهر الذي شخّصه في صور اتسمت أكثرها بالسلبية؛ لأن هذه الأشعار كانت في سجن أغمات، إذ يقول :[65]

أدارَ النَّوى كم طالَ فيكِ تلذُّذِي وكم عُقتِني عن دار أهيفَ أغيدِ

وَلكنها الأقدارُ تُردِي بِلا ظُبىً وتُصمِي بلا قتلٍ وترمِي بلا يدِ

فالشاعر يصف الدهر جائراً يذل ويُبكي ويسلب ما أعطى، وقلما يأسو إذ جرح، فالشاعر ينعت الدهر بصفات إنسانية من خواص العقلاء؛ كالتقلب مشخصاً بذلك الزمن الذي دار عليه وقلب حاله.

ومن جميل ما استخدمه الصور الحركية؛ كما في تصويره النفس وهي تسيل كقوله مسترجعاً ذكريات انتصاراته على أعدائه في المعارك :[66]

وكنا إذا حانتْ لنحرٍ فريضةٌ ونادت بأوقات الصلاة طبولُ

شهدنا فكبّرنا فظلت سيوفنا تصلي بهامات العدا فتطيلُ

سجودٌ على إثر الركوع متابَعٌ هناك بأرواح الكماة تسيلُ

فقد رسم المعتمد صور حركية للنفس وشبهها بشيء مائع؛ والنفسُ ليست مائعةً، لكنه استعار السيلان ليُضفي على الصورة حركة هادئة بطيئة جداً، فقد أراد الشاعر أن يقول بأن للموت نوعين : سريعاً وبطيئاً، وأصعبهما ما كان بطيئاً، لأن المجاهد يجرّعه لأعدائه جُرعةً جُرعةً، ويُصاحب كل جرعة منها ألم شديد، وهذا ما فعله الشاعر بالكماة من أعداء أمّته، فقد جرّعهم الموت ببطء وألم شديد، وكان ذلك مع وقت الصلاة.

[63] مقدمة لدراسة الصورة الفنية، نعيم اليافعي، بيروت، 1972م، / 40.
[64] ديوان المعتمد بن عباد، المعتمد بن عباد، / 94.
[65] المصدر نفسه، / 9.
[66] ديوان المعتمد بن عباد، المعتمد بن عباد، / 111.

ويكثر التقابل في شعر المعتمد ولا سيما بعد زوال ملكه ودخوله السجن فنرى تقابلاً بين الماضي والحاضر والألم والفرح والحاضر والمستقبل، فمن متقابلاته بين الماضي والحاضر قصيدة كتبها المعتمد حين وفد الداني عليه بأغمات، فبعث إليه بعشرين مثقالاً وقال معتذراً :[67]

إليكَ النَّزرَ من كفّ الأَسيرِ فإنْ تقبلْ تكنْ عينَ الشَّكورِ

تقبّلْ ما يـذوبُ له حيـاءً وإنْ عذَرتهُ حالاتِ الفقيرِ

وكم أعلتْ عُلاهُ من حضيضٍ وكم حطّت ظباهُ من أميرِ

وكم أحظَى رضاهُ من حَظِيٍّ وكم شهرتْ علاهُ منْ شَهيرِ

فنرى المعتمد يرتاح لتوالي الأنغام؛ ولهذا استخدم التكرار في مجال تعداد ما فُقِد، وسرد الصورة الموجبة بالمجد قديماً وما يقابلها اليوم من صُوَر موجبة بالحزن باعثة على التحسر، فكرر (كم التكثيرية) ليعدد خصاله وفعاله الحميدة، والتي جعلت تكراره لـــ (كم) مركزاً لأنواع الصور الإيجابية والجميلة التي افتقدها بدخوله السجن، ويولّد لديه حزناً في النفس ويضاعف الفجيعة التي آل إليها حاله في الحاضر وهو في غياهب السجن.

ومن التقابل بين الحاضر والمستقبل قصيدة كتبها إلى ابن حمديس يأسى على قصوره، فيقول :[68]

غريبٌ بأرضِ المَغربينِ أسيرُ سيبكِي عليهِ مِنبرٌ وسريرُ

وتندبه البِيضُ الصَّوارِمُ والقَنا وينهلُّ دمعٌ بينهنَّ غزِيرُ

فيا ليتَ شِعرِي هلْ أبيتنَّ ليلةً أمامِي وخلفِي روضةٌ وغديرُ

تراهُ عسيرَاً أم يسيرَاً منالُــهُ ألا كلُّ ما شاءَ الإلـهُ يسيـرُ

ففي هذا النص لا يجعل الشاعر الغد مستقبلاً، وحياة اليوم حاضراً، بل يجعل الحياة (اليوم والغد) حاضراً حتى يبلغ التأثير مداه ويطوي المسافة بين اليوم والغد، إنه رسمٌ لمرارة واقع المعتمد التي قلبت الموازين في رؤيته للحياة والتي جعلته ينتقل من النقيض في الماضي (العز والمجد) إلى النقيض في الحاضر (الذل والهوان).

- **علاقة الزمن في طول النص الشعري وقصره :**

يتجلّى أثر الزمن في طول النص الشعري وقصره من خلال وظيفتين رئيستين : ارتباطه بالسياق الزمني المادي كالأزمنة والفصول وتأثره بالتحولات الزمنية والثقافية في العصر الذي يكتب فيه الشاعر، ويسهم الزمن في تحديد بنية النص الشعري؛ إذ تلعب الأطر الزمنية دوراً في بناء النص الشعري والتعبير عن تجربة الشاعر، فيمكن له أن يستخدمه بوصفه خيطاً يربط بين عناصر النص سواء بالاستعانة بالذاكرة أو بالتعبير عن الحاضر أو التطلع إلى المستقبل.

[67] المصدر نفسه، / 102.
[68] المصدر نفسه، / 98.

وقد تأثر الشعر الأندلسي بالزمن والتحولات الاجتماعية والثقافية التي اتسم بها عصر ملوك الطوائف، فإذا ما بحثنا بشعر هذه الفترة وجدناه يختلف عن باقي فترات العصر الأندلسي، فقد أدى تطور الحياة الفكرية والاجتماعية في فترات الاستقرار إلى ميل القصائد نحو القِصَر، واتسمت بالطابع الغنائي والبحور الخفيفة التي تناسب الغناء واللهو، فظهر ما يُعرف بشعر الوصف وخاصة وصف المدن والطبيعة، وبالمقابل أدت الأحداث التاريخية والمأساوية التي نكب بها ملوك الطوائف إلى وجود نصوص شعرية تعبر عن الحزن والنكبات؛ فتطورت القصائد لتصبح أكثر طولاً وأكثر عمقاً تعكس غزارة فكر أو خيال أو تجربة الشعراء وحاجتهم للتعبير عن مشاعرهم؛ لا سيما شعور الألم والفقد.

وتجربة الشاعر المعتمد تكاد تكون مختلفة عن باقي تجارب الشعراء في عصره؛ فهو ملك وابن ملك، ولكنه مُنِيَ بالنكبات والأحزان، وتجرع كأس المرارة والفقدان لما كان له من استقرار وشعور بالفرح والسعادة، فاتسمت أغلب قصائده بالقِصَر في عهد القوة والمُلك، وتعددت الأغراض الشعرية التي توافقت والحالة النفسية والشعورية التي عاشها المعتمد في عهد الرخاء (الغزل؛ الوصف؛ الرسائل بينه وبين الشعراء الآخرين؛ المدح....) ، فمن ذلك قوله في معرض الغزل :[69]

يَا بديعَ الحُسن والإحـ سانِ يا بدرَ الدَّياجِي
يَا غزالاً صَادَ منّـي بالطّلَى[70] ليثَ الهِياجِ
قَد غَنَينا بسَنَا وَجـ هكِ عن ضوءِ السِّراجِ

فالشاعر هنا ليس بحاجة إلى أن يُطيل أبياته للتعبير عن مشاعره نحو المحبوبة، ذلك أن شعور الحب والفرح غالباً ما يتسم بقصر الزمن بعكس شعور الألم الذي يحتاج فترة أطول للتعافي منه، فالمعتمد وصف المحبوبة بالحسن والجمال الأخَّاذ الذي جعله يستغني بنور وجهها عن أي نور آخر، فمن خلال هذا النور يستطيع رؤية ما يريد كقوله في الوصف [71]:

مِجَنٌّ حكى صانعوه السَّماءَ لتقصرَ عنه طولُ الرّمَاحِ
وقد صَوَّروا فيهِ شِبهَ الثُّريا كواكبَ تقضي له بالنجاحِ
وقد طوَّقوه بذَوبِ النَّضارِ كما جلّل الأفقَ ضوءُ الصباحِ

فالشاعر لبّى رغبة والده في وصف مِجَنّ لازورديِّ اللون مُطوّق بالذهب، في وسطه مسامير مُذهَّبة وفيه كواكب فضَّة، فالمعتمد يصف ما يراه أمامه ولذلك ليس بحاجة إلى إطالة النص.

وبالمقابل فقد اتسمت قصائده التي قالها في الأسر بالطول؛ ومردُّ ذلك يعود إلى الألم والانكسار وشعور الفقد الذي كان يحسّ به المعتمد فجاءت تلك القصائد والألفاظ متوافقة وذاك الشعور، فالشاعر حاول من خلالها التعبير عن الحنين

[69] ديوان المعتمد بن عباد، المعتمد بن عباد، / 5.
[70] الطُّلى بالضم : الأعناق.
[71] ديوان المعتمد بن عباد، المعتمد بن عباد، / 29.

للماضي الرغيد وتصوير الواقع الحاضر الذي يعيشه في السجن والخوف والتشاؤم من المستقبل القادم، ومن ذلك قوله في رسالة أنفذها إلى الوزير أبي العلاء زهر بن عبد الله بن زُهر بمُرَّاكش بعد أن قام بعلاج إحدى كرائمه وهو في الأسر :[72]

أأرغب أن أعيش أرى بناتي عواريَ قد أضر بها الحفاءُ

خوادم بنتِ من قد كان أعلى مراتبه – إذا أبدو – النداءُ

جُزِيتَ أبا العلاء جـزاءَ بَرٍّ نوى بِرّاً وصاحبَكَ العلاءُ

سيُسلي النفسَ عمّن فات علمي بأن الكل يدركه الفنـــاءُ

فالشاعر في هذه الأبيات يصف الحال التي وصل إليها من الأسر والذل والقهر، ولا سيما قهره على بناته اللواتي تركهنَّ ولم يبقى لهنَّ أحدٌ فأُصبن بالجوع والحرمان والعُرِي، كما يوجه شكره وامتنانه للوزير أبي العلاء بعدما فعله مع إحدى بناته في مرضها، وساعد التناغم بين الأفعال الماضية والحاضرة في رسم معالم ذات الشاعر الحرَّة التي تأبى أن ترى فتياتها خادمات بعد أن كنَّ في مصافِّ الأشراف من الناس، والشاعر هنا أطال الكلام ليعبر عمَّا في نفسه من الأسى على مآل أولاده وبناته من بعده، وجاء شعره معبّراً عن ثقل الزمن ووطأة الأسر ومعاناة الفقد.

لقد كانت آلام الشاعر وما لاقاه في السجن من ذل الأسر وضيق العيش باعثاً على استنهاض ملكة الشعر فيه؛ ومنبعاً من منابع شعره يجد فيه المعاني الغزيرة، فتتدفق منه عاطفته لتسيل شعراً وجدانياً مؤثراً يبعث فيه المعتمدُ بعض بؤسه وآلامه، ويجد في قوله عزاء وتسلية عن أحزانه، ويمكن القول : أنه كان للنكبة التي حلت بالمعتمد الفضل الأكبر في إذكاء شاعريته وحمله على نظم أفضل شعره الذي خلَّده كشاعر له منزلته الشعرية كما خلَّدت لشعره قيمته الأدبية، ومن ذلك قوله الذي يصف به نكبته وأثرها في الأرض كلها بأسلوب جزل قوي :[73]

أنباءُ أسرِك قد طبَّقنَ آفاقَاً بل قد عمَمْنَ جهاتِ الأرضِ إقلاقَا

سرتْ من الغربِ لا يُطوى لها قدمٌ حتى أتتْ شرقَها تنعاكَ إشراقَا

فأحرقَ الفجعُ أكباداً وأفئدةً وأغرق الدَّمع آماقاً وأحداقَا

قد ضاقَ صدرُ المعالِي إذ نُعيتَ لهَا وقيل : إنَّ عليك القيدَ قد ضاقَا

أنِّي غُلِبتُ وكنتُ الدَّهرَ ذا غَلَبٍ للغالبيـنَ وللسُّبَّاقِ سَبَّاقَا

قلتُ : الخطوبُ أذلَّتنِي طوارِقُها وكانَ عزميَ للأعداءِ طرَّاقَا

متَى رأيتُ صروف الدهر تاركَةً إذا انبرتْ لذوِي الأخطارِ أرماقَا

فالشاعر يصف ألمه ونكبته ومأساته، فاحتاج إلى الإطالة ولا سيما أنه أسقط الألم والوجع على الأرض؛ فشاركته حزنه على نفسه، وساعده في ذلك تواتر الأفعال وترادفها معاً (طبَّقنَ، عممنَ، سرت، أتت، أحرقَ، أغرقَ، ضاقَ، ولدتُ، رأيت،

[72] ديوان المعتمد بن عباد، المعتمد بن عباد، / 90.
[73] المصدر نفسه، / 110.

انبرت)، وكذلك المفردات والتراكيب اللغوية مثل : (أســـرك، جهات الأرض، الغرب، شـــرقها، أحرق الفجع، أغرق الدمع، الخطوب أذلَّتني طوارقها، صروف الدهر) فأسهمت مجتمعة في نقل إحساس الشاعر المقيَّد إلى المتلقي ليشعر بثقل ومرارة ما يعيشه المعتمد في السجن؛ فهمُّه كبير وعذابه شديد.

ولربما نجد المعتمد قد عمد إلى إطالة النصوص في الأبيات الأسرية بقصد تذكر عز الماضي والمجد الزائل ولا سيما في قصيدة أجاب فيها ابنَه الرشيد؛ فقال :[74]

وأنا اليومَ رهنُ أسرٍ وفَقــرٍ مُستباح الحِمَى مَهيضُ الجناحِ

لا أجيبُ الصَّريخَ إذا حضرَ النَّـ ـاسُ ولا المعتَفينَ يوم السَّماحِ

عاد بُشرى الذي عهدتُ عبوساً شغلتنِي الأشجانُ عن أفراحِي

فالتَّماحِي إلى العيونِ كريــةٌ ولقد كانَ تُرفــةَ اللَّمــاحِ

فالشاعر هنا يتذكر ماضيه المجيد وعزّه الزائل، ويقابله بوضعه الحالي في الأسر وهو مقيد الأيدي والأرجل؛ تملأ الأحزان نفسَهُ، ففي الماضي كان كريماً لا يبخل على أحد، أما اليوم فهو سجين معذب لا أحد يزوره.

- **علاقة الزمن باللغة والإيقاع :**

علاقته باللغة :

نلاحظ أن الشاعر المعتمد قد استخدم الكثير على مستوى التشكيل اللغوي، ذلك أن التركيب اللغوي عنده وعند غيره من الشـــعراء مهم، ويكشـــف مدى براعته وقدرته الشـــعرية في اختيار الألفاظ الدالة على الموقف الذي يتحدث عنه، ولا يقف التشكيل اللغوي عند اختيار الألفاظ بل يتعداها ليشمل تركيب الجمل الاسمية والفعلية والتراكيب البلاغية، فاللغة تستمد نســـقها من التشـــكيلات اللغوية لأنها لغة إبداعية، واللغة من طبيعتها الانزياح؛ وهذا ما يؤكده جون كوهِن فيقول : (إن الشاعر ينشئ الكلمات ولا ينشئ أفكاراً، وترجع عبقريته كلها إلى الإبداع اللغوي)[75]، والشعر لا يحطم اللغة العادية إلا ليعيد بناءها وهو بذلك يخرق القواعد اللغوية من أجل بناء الشعرية.

والتحول الشعري الذي ينظم النص على مستوى العلائق التي تربط بين متوالياته الاسمية والفعلية تارة والعلائق الاستبدالية التي تتحرك مع تحولات المعنى تارة أخرى، لا يمكن أن يحقق وظيفته الجمالية إلا عندما يوسع الفضاء الشعري ويخلق فيه دلالات وإشارات جديدة ويبعث فيها شحنات إضافية تتنوع وتتعدد مع كل قراءة جديدة.

ويقول المعتمد في رسالة كتبها إلى ابن حمديس :[76]

برأي من الدهر المضلل فاسـدٍ متى صلُحَت للصالحين دهورُ

[74] ديوان المعتمد بن عباد، المعتمد بن عباد، / 94.
[75] بنية اللغة الشعرية، جون كوهن، ط1، ترجمة محمد الولي ومحمد العُمَري، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، 1986م، / 40.
[76] ديوان المعتمد بن عباد، المعتمد بن عباد، / 98 / 99.

أذلَّ بني ماء السماء زمانهــمْ وذلُّ بني ماء السماء كثيــرُ

فما ماؤها إلا بكــاءً عليهــمُ يفيض على الأكباد منه بحــورُ

لقد تناوبت هنا الجمل الفعلية والاسمية معاً لتمنح النص شيئاً من الحركة مع الثبات في آن واحد، فجاءت الأفعال : (أذل – يفيض) لتعطي النص توازناً في الأحداث والحركة، وكان المعتمد حكيماً في اختيار الأفعال والألفاظ التي تتناسب والحالة التي يعيشها، فمن ناحية هو أسير في أغمات؛ معذب النفس والجسد يتوقع ما سيؤول إليه حاله بعد وفاته، وأسقط هذا المآل والحزن على الأشياء المحيطة به جاعلاً من الدهر سبباً لما وصل إليه، وهذا واضح من خلال التركيب (فما ماؤها) في إشارة منه إلى السماء التي لم ترضَ إلا أن تبكي وتذرف الدموع على مصير ملك كالمعتمد حتى أصبحت تلك الدموع بحوراً لا تتسع من كثرة الماء فيها، ففاضت مؤكدة حزنها الشديد، وهذا التوكيد يدعمه الاستثناء بقوله (إلا بكاء عليهم) فبكاء المعتمد وحزنه نابع من أسره وما حل به وبأولاده من بعده.

وقوله في موضع آخر :[77]

زمانَ تنافستْ في الحظّ منهُ ملوكٌ قد تجورُ على الدُّهورِ

زمانَ تراجعتْ عن جانبيهِ جيادُ الخيلِ بالموتِ المُبيرِ

نحوسٌ كنَّ في عقبى سُعودٍ كـذاكَ تدورُ أقدارُ القديرِ

وللزمن هنا دور مهم لأنه محور ذكريات الشاعر، ذلك الزمن الذي لا يستقر على حال، ويزيد من حسرته وشعوره بالألم على ملكه وعرشه وسلطانه أيام العز والرخاء، وتأتي تلك الحسرة من خلال النداء المحذوف للزمن والذي كان حلبة للتنافس والصراع بين الملوك (زَمَانَ)، ولكن كان للقدر كلمته؛ فقد تحول ذاك الزمان وجار على الشاعر فولَّد في نفسه الحسرة والحزن والشعور بالألم وفقد الماضي السعيد بدليل قول الشاعر (نحوسٌ كنَّ في عقبى سُعودٍ)، وكان للتقديم والتأخير دور في رفد ذلك الشعور (في الحظ منه ملوك – نحوسٌ كنَّ) ففي تقديم الجار والمجرور على الفاعل وتقديم اسم كان عليها أسلوب بلاغي مهم في التعبير عن الحالة النفسية التي عاشها المعتمد في الأسر؛ فهو لا يفتأ يذكر الماضي الجميل ويقابله بالحاضر المؤلم المستقبل المبهم.

علاقته بالإيقاع :

لقد ركز دارسو الأدب ونقاده على أن الشعر يجمع بين الخيال والعاطفة والنغم، وذلك يعني أن الشعر الذي يفقد أحد هذه العناصر ليس شعراً حتى لو أشبه الشعر في شكله وقوالبه، والإيقاع هو وحدة النغمة التي تتكرر في الكلام أو البيت بصورة من الصور، وهو توالي الحركات والسَّكنات على نحو منتظم في أبيات الشعر، ويندرج ضمن مصطلح الإيقاع دراسة البحر والقافية والتكرار وحسن التقسيم، أما على مستوى البحر فإن البحر الغالب عند المعتمد هو البحر الكامل الذي يشغل حيزاً كبيراً في شعر الأندلس؛ وإذا ما أردنا التفصيل في الأغراض الشعرية لديه وجدنا البحر الغالب في شعر الأسريات هو

[77] المصدر نفسه، / 103.

الطويل والبسيط، ذلك أن هذين البحرين هما الأنسب في باب الشكوى واستعادة الماضي والتحسر على الحاضر لطول النفس فيهما وملاءمتهما لأسلوب القص، كقوله من البسيط :[78]

نعمْ هوَ الحقُّ وافانِي بهِ قدرٌ من السَّماءِ فوافانِي لمِيعادِ

و من الطويل قوله :[79]

يعيدُ على سَمعِي الحدِيدُ نشيدَهُ ثقيلاً فتبكِي العينُ بالجسّ والنَّقرِ

على حين نجده يوظف البحور الغنائية في أغراض الغزل والخمريات وغيرها كقوله من الخفيف :[80]

اشربِ الكأسَ في ودادِ وِدَادِكْ وتَأَنَّسْ بِذِكرها في انفرادِكْ

و قوله من الرجز المجزوء :[81]

يا ربَّة اللَّحظِ الَّذِي شدَّ وثَاقَاً إذْ فَتَرْ

أما على مستوى القافية نجده يوظف قوافي معينة في أغراض معينة، أما القافية الطاغية فهي الراء في أكثر من أربع وثلاثين مقطوعة[82]، والراء نوعان : مرققة ومفخمة، وهي صوت مكرر[83]، ومما يُلاحظ جليّاً أن المعتمد وظف الراء المفخمة أيام سعوده كقوله :[84]

عِلماً لعمرُكَ منْهَا أنَّها قَمَرٌ هل تحجبُ الشَّمسُ إلا صفحةُ القَمَرِ ؟!

فالراء المفخمة في قوله (لعمرك – قمر).

وبالمقابل وظف الراء المرققة في أسرياته كقوله :[85]

ونَاحتْ فباحتْ واستراحَتْ بِسرّهَا ومَا نطقتْ حرفَاً يبوحُ بهِ سرُّ

فالراء المرققة في قوله (بسرّها)، ولو نظرنا نجد الحاء تكررت خمس مرات مع السين ثلاث مرات، الأمر الذي أحدث جواً حزيناً تمتد فيه الأحزان امتداد المد الذي تكرر أربع مرات.

[78] ديوان المعتمد بن عباد، المعتمد بن عباد، / 96.
[79] المصدر نفسه، / 106.
[80] المصدر نفسه، / 10.
[81] المصدر نفسه، / 13.
[82] المعتمد بن عباد شاعراً، آمنة بن منصور، رسالة ماجستير، إشراف الدكتور كروم بو مدين، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان، الجزائر، 2007م، / 115.
[83] الأصوات اللغوية، إبراهيم أنيس، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، مصر، ط4، 1971م، / 66 / 67.
[84] ديوان المعتمد بن عباد، المعتمد بن عباد، / 15.
[85] المصدر نفسه، / 69.

ولو أردنا الوقوف على توظيف الشـاعر للقافية المقيدة والمطلقة؛ وجدناه تجنب المقيدة في أسـرياته، ويقف وراء هذا سـبب؛ فهو أسير مقيد فلا أقل من أن يجعل شعره حراً طليقاً يلتمس به ما لم يصل إليه على أرض الواقع، بل وأكثر من ذلك فنجده جنح إلى إشباع القافية كما في قوله :[86]

قد ضاقَ صدرُ المعالِي إذْ نُعيتَ لهَا وقيلَ إنَّ عليكَ القيـدَ قد ضاقَا

و قوله :[87]

قيدي أما تعلمنـي مُسلمَـاً أبيـتَ أن تشفـقَ أو ترحمَـا؟!

على حين وظَّف المقيَّدة في باقي الأغراض ولا سيما الغزل وكأنه ارتضى لنفسه أن يكون أسير المحبوب والهوى كقوله : [88]

أوليسَ وجهكَ فوقَهُ قمَرٌ يُجلَى بنيّرِ نورِهِ الحلـكُ ؟

ومصطلح الإيقاع مرتبط بمصطلح التوازي في دراسة موسيقى النص؛ وقد عرّفه ابن منظور في لسان العرب بـــــ (المقابلة والمواجهة – قال : والأصل فيه – الهمزة يُقال : آذيته إذ حاذيته)[89].

ويندرج تحت ظاهرة التوازي (الترصيع – التصريع – التشطير – رد العجز على الصدر...) ، وقد استخدم المعتمد التدوير؛ ويُقصد به تقسيم الكلمة إلى شطري البيت : صدره وعجزه بحيث يكون الجزء الأول في تفعيلات الصدر والجزء الآخر في تفعيلات العجز، وهو بذلك يكسر حاجز التقسيم العروضـي المعروف للبيت الذي يعتمد على فصـل تفعيلات الصـدر عن العجز كقوله :[90]

وألذُّ من طعمِ الخضُـو عِ على فمِي السُّمّ النَّقيـعُ

لم أُستلب شرفِ الطّبـا ع أيُسلبُ الشَّرفُ الرَّفيعُ ؟!

وبذلتُ نفسيَ كي تسِيـ لَ إذاً يسيلُ بها النَّجيـعُ

وجاء التدوير في هذه الأبيات فأدى دوراً كبيراً في كسر التقسيم العروضـي، فقد كانت التفعيلات مستمرة متواصلة، فالأصل أن تنتهي التفعيلة عند نهاية كلمات الشـطر الأول وتبدأ التفعيلات الجديدة في الشـطر الثاني، وهذا ما ولَّد نوعاً من الإيقاع الهادف إلى التخلص من الرَّتابة والانتظام المألوف في القطعة الشـعرية عبر تنويع الموسـيقى، وقد حقق التدوير اسـتمرارية التعبير عن عواطف الشاعر ومشاعره وأحاسيسه لا سيما أنه يعيش تجربة السجن مكبلاً مقيداً[91]، فالتدوير في البيت الأول جاء ليبين أن الخضـوع والاسـتسـلام مرفوضـان رفضـاً قاطعاً عند المعتمد، وهذا الرفض كان مسـتمراً ومتواصـلاً مما جعل الموسـيقى تحمل هذا الرفض أيضـاً، وأكَّد المعتمد هذا المعنى عندما ربط عروضـياً بين الشـطرين في كلمة الخضـوع التي

[86] المصدر نفسه، / 110.
[87] المصدر نفسه، / 112.
[88] ديوان المعتمد بن عباد، المعتمد بن عباد، / 23.
[89] لسان العرب، ابن منظور، دار صادر، بيروت، د.ت، مادة وَزِيَ.
[90] ديوان المعتمد بن عباد، المعتمد بن عباد، / 88.
[91] أسـريات المعتمد بن عباد " دراسـة نقدية "، محمد سـليمان السـعودي وخالد سـليمان الخلفات، مجلة جامعة دمشـق، المجلد 27، العدد 1 + 2، 2011م، / 213.

كسَّرها الشاعر وجزَّأها ليؤكد بأنها ليست من صفاته على مر التاريخ، إذ لم يكن إلا فارساً وبطلاً محارباً، فهو يرفض سياسة الزمن في جعله يستسلم لواقعه المرير في السجن بعد أن كان شاغل عصره بالبطولات.

ومن الجدير بالذكر أن المعتمد قد استخدم في هذه الأبيات حرف العين روياً بما يحمل من قوة في مخرجه؛ فهو من الحروف الحَلْقية، وفي توظيف الشاعر له هنا شيء من التناسب والحالة النفسية التي كان يعيشها المعتمد في الأسر فحمل حرف العين مع كل مَدٍّ في نهاية الأبيات الحزن والألم الذي كان يحس به الشاعر، في محاولة منه للتعبير عن التماسك والصلابة في وجه الواقع، فأظهر نفسه بمظهر البطل المحارب والمدافع عن مملكته؛ لأن القوة تكمن في هذا التماسك وإعادة تجميعها مرة أخرى، وساعدت حركة الضم مع حرف العين في إظهار هذه القوة مما أكسب المعتمد قوة إضافية للانتفاض على الواقع القاسي الذي يعانيه في السجن.

وقوله في موضع آخر :[92]

قيدِي أما تعلمُنِي مُسلِمَاً أبيتَ أن تشفقَ أو ترحمَا
دمِي شرابُ لك واللَّحمُ قد أكلتَهُ لا تهشّمِ الأعظُمَا
يُبصرنِي فيكَ أبو هاشِمٍ فيثنِي القلبَ وقد هُشّمَا

وهنا وظّف الشاعر الموسيقى توظيفاً جيداً لتقديم المعنى؛ فقد اختار بحراً ذا تفعيلات سريعة في إيقاعاتها، وهو البحر السريع (مستفعلن مستفعلن فاعلن) وقد وُفّق في هذا الاختيار ليعبر عن الثورة الجامحة في نفسه التي يمنعها القيد عن الحركة، وقد توافق هذا الوزن السريع بتفعيلاته مع المعاني التي أرادها الشاعر أن تصل متتالية متواصلة دون أن يكون هناك مسافات طويلة بينها.

وكان حرف الرَّويِّ حرف الميم؛ وهو من الحروف الشَّفوية المخرج، وعند نطفها تنطبق الشفتان لإخراجه، وفي هذا إيحاءٌ من المعتمد ودلالة على القيد الذي يرفضه الملك الشاعر، ويبحث عن مخرج له فقام بإطلاق حرف الرويِّ بحرف المد الألف في إشارة منه لمشاعره المكبوتة في داخله؛ والتي يريد تحريرها من قيد نفسه، وكأننا به يسقط هذا المعنى على ذاته التي تريد الحرية من الأسر والقيد.

هذا هو المعتمد بن عباد الشاعر المُرَزَّأ والملك الأسير؛ في شعره الكثير مما ينم عن شاعريته، من لغة بسيطة في حين وجزلة قوية حيناً آخر إلى أساليبه السهلة والمتنوعة، وصوره الكثيرة التي تشهد كلها له بحق، فهو شاعر قال الشعر للشعر فكان شعره صورة صادقة حية لتجربة أندلسية خالصة لا تشوبها شائبة، تجربة فريدة من نوعها.

الخاتمة ونتائج البحث :

توجَّه البحث إلى دراسة تأثير التحول الزمنيِّ في شعر المعتمد بن عباد الملك الشجاع؛ فهو الشاعر والملك في عصر ملوك الطوائف، ذاك العهد الذي كان النقطة الفاصلة في حياة ملوكه ولا سيما المعتمد الذي مُنيَ بالسجن والأسر بعد العز والمُلك،

[92] ديوان المعتمد بن عباد، المعتمد بن عباد، / 112.

فجاء شعره صورة للزمن الماضي الذي يمثل العزّ والملك، والحاضر الذي مثّل الضعف والانكسار، والمستقبل الغامض الذي يمثّل الخوف والقلق.

ولقد توصلنا إلى النتائج التالية :

1- اتسم شعر الأسر لدى المعتمد بالعفوية والعذوبة كما كان صورة صادقة للمعاناة التي عاشها.
2- إن المعتمد هو زعيم شعراء المنفى بلا منازع، كيف لا وهو الملك الشريف والشاعر الفارس، نزل من العلبين إلى الحضيض وشاركته في المأساة أسرته؛ لذلك كانت معاناته مضاعفة.
3- لقد كان شعر المعتمد بن عباد صورة لمراحل حياته وتقلبات الزمن فيها.
4- غلب على أشعار المعتمد أيام سعوده الغزل والمدح والفخر في حين غلب على شعر الأسر الاستسلام لجور الدهر وما فعله به، علاوة على أنه كان له أثر في إثارة شجونه وآلامه.
5- إن أقسى مرحلة في حياة المعتمد هي أثراها فنياً وإبداعياً وجمالياً " مرحلة الأسر والسجن".
6- تجلى حضور الزمن الماضي في شعر المعتمد بن عباد باستدعاء أمجاد الماضي السعيد والعز الذي كان فيه.
7- تجلى حضور الزمن الحاضر في شعر المعتمد بن عباد من خلال التحسر على الماضي وتصوير الواقع الحالي من سجن وعذاب بالنسبة له ولأهل بيته.
8- تجلى حضور الزمن المستقبل في شعر المعتمد بن عباد بصورة يكتنفها الغموض والقلق والخوف من القادم، وبالمقابل نرى في بعض الأبيات شيئاً من الاستسلام للقضاء والقدر.
9- كان شعر المعتمد في نكبته فيضاً من العاطفة والألم؛ وتميز أسلوبه فيه بالرقة والصدق في التعبير.
10- توسل المعتمد بضروب من ألوان التصوير فبدأ بالتجسيد وانتهى بالصور الحركية، وكان لهذا دور في عكس صورة الحياة التي كان يعيشها لأن هذه الصور وليدة محنة الأسر.
11- غلب على شعر المعتمد في مرحلة الإمارة القِصَر والطابع الغنائي والبحور الخفيفة، في حين غلب على شعره أيام الأسر الطول والعمق بما يتناسب وتصوير الألم.

12 - غلب على شعر المعتمد استخدام البحر الكامل عموماً والطويل والبسيط في شعر الأسريات، وقد وظف القافية المُطْلَقة أيام أسره، في حين وظف المقيدة أيام سعوده ولا سيما في غرض الغزل.

قائمة المصادر والمراجع :

القرآن الكريم.

أولاً : المصادر :

1- الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، ابن الخطيب، د .ط ، عُني بنشره بشير الفورتي، تونس، د.ت .
2- ديوان أبي العتاهية، دار بيروت للنشر والطباعة، بيروت، 1986م.
3- ديوان الفرزدق، دار صادر، بيروت لبنان، 1984م.

4- ديوان المتنبي، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، 1983م.
5- ديوان المعتمد بن عباد، المعتمد بن عباد، جمع وتحقيق حامد عبد المجيد وأحمد أحمد بدوي، راجعه طه حسين باشا، المطبعة الأميرية، القاهرة، 1951م.
6- الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ابن بسام، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، المجلد الأول، 1979م.
7- رسالة الغفران، المعري، تحقيق بنت الشاطئ، دار المعارف، القاهرة، مصر، 1950م.
8- صحيح البخاري، أبوعبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، تحقيق مصطفى ديب البغا، مطبعة الهندي، بيروت، 1980 – 1981م.
9- المعجب في تلخيص أخبار أهل المغرب، عبد الواحد المراكشي، تحقيق محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي، مطبعة الاستقامة، القاهرة، مصر، 1949م.
10- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب، المقري التلمساني، تحقيق يوسف الشيخ محمد البقاعي، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط1، 1998م.

ثانياً : المراجع :

1 – الأصوات اللغوية، إبراهيم أنيس، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، مصر، ط4، 1971م.
2 – الأعلام، خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ج2، د.ت .
3 – البلاغة والأسلوبية، محمد عبد المطلب، ط1، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة دراسات أدبية، 1984م.
4 – خلاصة اليومية والشذور، عباس محمود العقّاد، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، 1995م.
5- الزلاقة بقيادة يوسف بن تاشفين، شوقي أبو خليل، دار الفكر المعاصر، بيروت لبنان – دار الفكر دمشق سورية، ط2، 1980م.
6-الزمان والمكان وأثرهما في حياة الشاعر الجاهلي وشعره، صلاح عبد الحافظ، دار المعارف، القاهرة، مصر، 1983م.
7- الفكر الأخلاقي عند ابن خلدون، عبد الله شريط، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981م.
8- المعتمد بن عباد، بقلم علي أدهم، نشر وزارة الثقافة والإرشاد القومي، سلسلة أعلام العرب، دار مصر للطباعة، د.ت .
9 – مقدمة لدراسة الصورة الفنية، نعيم اليافعي، بيروت، لبنان، 1972م.

ثالثاً : المراجع المعربة :

1 – بنية اللغة الشعرية، جون كوهن، ط1، ترجمة محمد الولي ومحمد العمري، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، 1986م.

رابعاً : المعاجم :

1 – تهذيب اللغة، الأزهري، تحقيق محمد عبد المنعم خفاجي ومحمد فرج العقدة، مراجعة محمد البجاوي، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، مصر، 1964 – 1967م.

2 – الكليات " معجم في المصـــطلحات والفروق اللغوية "، أبو البقاء أيوب الكفوي، تحقيق عدنان درويش ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، 1992م.

3 – لسان العرب، ابن منظور، دار صادر، بيروت، د.ت، الجزء الرابع.

4 – المخصص، ابن سيده، دار الفكر، بيروت، لبنان، 1978م، الجزء الثاني.

خامساً : الرسائل الجامعية :

المعتمد بن عباد شـاعراً، آمنة بن منصـور، رسـالة ماجسـتير، إشـراف الدكتور كروم بو مدين، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان، الجزائر، 2007م.

سادساً : الدوريات :

1 – أسريات المعتمد بن عباد دراسة نقدية، محمد سليمان السعودي وخالد سليمان الخلفات، مجلة جامعة دمشق، المجلد 27، العدد 1 + 2، 2011م.

2 – المعتمد بن عباد صاحب إشبيلية شاعراً أم ملكاً، الفاتح الزين إدريس، منشورات جامعة الخرطوم، العدد 24، 2006م.